السّنة: 3 ليسانس شعبة: اللّسانيات العامّة الفوجان: 7 + 11 السّداسي: الخّامس

المقياس: المدارس النّحوية **أعمال موجّهة**

المرحلة: الثّانية **الأستاذ:** عبد الوهّاب شيباني

المدارس النّحوية: نصوص للتّحليل

النّصّ رقم 1 للمناقشة و التّحليل:

يتعلّق بأوّل محور من المقرّر الوزاري: ينظر المطبوعة " ألنا مدارس " إبراهيم السامرّائي "

النّصّ رقم 2 للمناقشة و التّحليل:

يتعلّق بالمحورين 1 و 2 من المقرّر الوزاري:

أحمد الفقيه: المدارس النحوية (مدرسة البصرة)

المدارس النحوية مصطلح يشير إلى اتجاهات ظهرت في دراسة النَّحو العربي ، اختلفت في مناهجها في بعض المسائل النحوية الفرعيّة ، وارتبط كل اتجاه منها بإقليم عربي مُعيّن ، فكانت هناك مدرسة البصرة ، ومدرسة الكوفة، ومدرسة بغداد وهكذا.

ولم يكن لهذا الارتباط المكاني دلالة علميّة خاصة.

ويرى بعض الباحثين أن القدماء لم يطلقوا على مسائل الخلاف في النحو القديم كلمة مدرسة ، فلم يؤثر عنهم مصطلح المدرسة البصرية ، ولا مصطلح المدرسة الكوفية ولا مدرسة بغداد ولكننا نقرأ من قولهم : مذهب البصريين ، ومذهب الكوفيين ، ومذهب البغداديين ، وربما ورد في قولهم : مذهب الأخفش ، ومذهب الفراء ، ومذهب سيبويه وغير ذلك.

غير أن المعاصرين استحسنوا لفظ المدرسة فاستعاروها في مادة الخلاف النحوي ، كما استعاروها في مسائل أدبية أخرى ،

فأطلقوا على بناء القصيدة عند أوس بن حجر ـ على سبيل المثال ـ بناءً خاصًا يختلف عما عند غيره من الجاهليين ـ واستمرأ هذا النهج في الاصطلاح بعض الباحثين ، فكانت مدرسة الديوان ، وهكذا قيل عن الأدب في المهجر ، على الرغم من الخلاف الكبير بين أدباء المهجر في منازعهم الفكرية.

ولعل من هذا ماذهب إليه الباحثون المعاصرون في تاريخ النحو والنحاة ، فأثبتوا مصطلح المدرسة في نحو البصريين ، ومثله مدرسة الكوفة ، ومدرسة بغداد أو غير ذلك.

غير أنك حين تنظر في التراث النحوي لاتجد جمهرة النحاة ـ بصريين وكوفيين وغيرهم ـ قد اختلفوا في أصول هذا العلم ،

ولم ينطلق هؤلاء من أفكار متعارضة ، ولكنهم قد اختلفوا في مسائل فرعية تتصل بالتعليل والتأويل ، فكان لهؤلاء طريقة أو مذهب ، ولأولئك طريقة أو مذهب آخر ، وقد يكون الاختلاف بين بصري وبصري كما كان بين كوفي وكوفي آخر، ولا تعدم أن تجد بصريًّا قد وافق الكوفيين، وكذلك العكس.

أما كلمة مذهب فترد كثيرًا في الكلام عن الخلاف النحوي ، فيقولون ، مذهب البصريين كما قالوا : مذهب الكوفيين ، ومذهب البغداديين ، وقد تطلق كلمة مذهب على الطريقة التي سار عليها أحد النحاة فقالوا : مذهب سيبويه كذا ، أو قولهم : مذهب الأخفش والفرَّاء كذا.

والمتصفح لكتب التراث التي تعرضت للبحث في تاريخ النحو والنحاة ، يلحظ خلوّها من مصطلح المدرسة ولكنه يجد أخبارًا مجموعة لعلماء كل عصر على حدة ، ففي الفهرست لابن النديم مثلاً نجد بابًا يفرد للكلام في النحو وأخبار النحويين واللغويين من البصريين ، وبابًا آخر لأخبار النحويين واللغويين الكوفيين ، ثم باباً ثالثًا لأخبار جماعة من علماء النحو واللغويين ممن خلط المذهبين ، وقد عرف هؤلاء الأخيرون عند الدارسين بالبغداديين.

على أن أبا سعيد السيرافي أفرد كتابًا لأخبار النحويين البصريين بدءًا بأبي الأسود الدؤلي ، وانتهاء بأبي بكر محمد بن السريا لمعروف بابن السراج ، وأبي بكر محمد بن علي المعروف بمبرمان اللذين أخذ السيرافي عنهما النحو ، وعليهما قرأ كتاب سيبويه ، ونص على أن في طبقة أستاذيه هذين ممن خلط علم البصريين بعلم الكوفيين، أبو بكر بن شقير، وأبو بكر بن الخياط.

وعندما ألّف أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي (ت 351 هـ) كتابه في مراتب النحويين ، عرض لعلماء الأمصار الثلاثة ممن اشتغلوا باللغة والنحو ، بدءًا من أبي الأسود ، ومن أخذ عنه، وبعض اللغويين والنحويين من البصريين ، دون أن يعقد لذلك عنوانًا ، حتى إذا فرغ من البصريين عقد بابًا لـعلماء الكوفة، لكن الناظر فيمن سلكهم ضمن الكوفيين يرى بعض العلماء البصريين يسلكون خلال هذه المجموعة ، وعلى سبيل المثال ترى الجرمي وأبا عثمان المازني وأبا العباس المبرد ، ولعله لم يُرد ذلك ، فعقد بعد ذلك بابًا لعلماء الكوفة بعد الكسائي ، حتى إذا فرغ من ذكرهم خصص الباب الأخير لعلماء بغداد.

أما الزبيدي ، فقد وضع النحويين واللغويين في طبقات ، فابتدأها بطبقات النحويين البصريين ، وصنفهم إلى عشر طبقات ، وانتقل بعدها إلى طبقات النحويين الكوفيين فكانوا ست طبقات ، ثم عاد للغويي البصرة فكانوا سبع طبقات ، فلغويي الكوفة وهم خمس طبقات ، بعد ذلك خصص أبواباً لطبقات

النحويين واللغويين المصريين ، فالنحويين واللغويين القرويين ، ثم النحويين واللغويين الأندلسيين.

وعلى كل حال ، فقد شاع بين المحدثين استقلال كل مصر من هذه الأمصار بمذهب شاع بين علمائها ونحاتها ، وألفّت الكتب في هذا التواطؤ ، فهناك كتاب عن مدرسة الكوفة وآخر عن مدرسة البصرة النحوية ، وصنف الدكتور شوقي ضيف كتابًا في المدارس النحوية أجمل فيه الجهود الخصبة لكل مدرسة ، وكل شخصية نابهة فيها ، فابتدأه بالمدرسة البصرية ، لأنها هي التي وضعت أصول النحو وقواعده ، وكل مدرسة سواها فإنما هي فرع لها ، وثمرة تالية من ثمارها ، وذهب إلى أن الخليل بن أحمد الفراهيدي هو المؤسس الحقيقي لمدرسة البصرة النحوية ، ولعلم النحو العربي بمعناه الدقيق ، ثم تلاه سيبويه فالأخفش الذي أقرأ النحو لتلاميذ من البصرة والكوفة ، ثم جاء بعده المازني ، فتلميذه المبرِّد وهو آخر أئمة المدرسة البصرية النابهين.

أما نشاط مدرسة الكوفة فبدأ متأخرًا عند الكسائي الذي استطاع هو وتلميذه الفراء أن يستحدثا في الكوفة مدرسة نحوية تستقل بطوابع خاصة من حيث الاتساع في الرواية، وبسط القياس وقبضه، ووضع بعض المصطلحات الجديدة ، والتوسع في تخطئة بعض العرب ، وإنكار بعض القراءات الشاذة.

أما المدرسة البغدادية فقد قامت على الانتخاب من آراء المدرستين (البصرية و الكوفية) مع فتح الأبواب للاجتهاد ، والوصول إلى الآراء المبتكرة.

ولم يتخلص علماء هذه المدرسة من نزعتهم إلى إحدى المدرستين السابقتين، أو ميلهم إلى مناهجها أكثر من ميلهم إلى المذاهب الأخرى ، أو إلى الاستقلال عنهما.

ثم ظهرت بعد ذلك المدرسة الأندلسية بدءًا من القرن الخامس الهجري ، ومثلها المدرسة المصرية ، إلا أن علماءهما لم يكونوا إلا تابعين لعلماء البصرة أو الكوفة أو بغداد ، ولم يتجاوزوا الاجتهاد في الفروع.

قد نسمع بعض الأحيان المدرسة البصرية والمدرسة الكوفية والبغدادية في النحو ... فما هي ؟ ومن هم علمائها؟ أولا دعوني أقول لكم أن أول من أسس علم النحو هو عليّ بن أبي طالب ... وأبو الأسود الدؤلي نشر هذا العلم وعمل فيه الكتب ودونه ... وجميع كلامه مرفوع لعلي بن أبي طالبوانتشر علم اللغة العربية في العراق خاصة وكل السلام عامة ... ويوجد علماء في الحجاز ومصر والمغرب والاندلس نجباء في اللغة العربية ... ولكن الذي اشتهرت من المدارس هي المدرسة البصرية والكوفية

والبغدادية وقبل أن أتكلم عن العلماء الذين اشتهروا في هذه المدراس دعوني أقول لكم لماذا الخلاف دائم بين هذين المدرسيتين الكوفية والبصرية لأنهم هم أول المدرستين نشأة ... وكثرة التلاميذ والعلماء فيها.

الخلاف كان من ناحية الاستشهاد في الكلام و الأشعار في النحو على أنّ دائرة الاستشهاد تتّسع وتضيق بحسب مدارس اللغة والنحو التي نشأت في الحواضر الإسلامية ، فالمدرسة البصرية شدّدت أشدّ التشدّد في رواية الأشعار والأمثال والخطب ضمن الدائرة المشار إليها ، واشترطوا في الشواهد المعتمدة لوضع القواعد أن تكون جارية على ألسنة العرب وكثيرة الاستعمال في كلامهم بحيث تمثّل اللغة الفصحى خير تمثيل ، وحينما يواجهون بعض النصوص التي تخالف قواعدهم ، كانوا يرمونها بالشذوذ أو يتأوّلونها حتى تنطبق عليها قواعدهم.

أمّا أقطاب المدرسة الكوفية فقد اتّسعوا في الرواية عن جميع العرب بدواً وحضراً ، واعتدّوا بأقوال وأشعار المتحضّرين من العرب ممّن سكنوا حواضر العراق ، واعتمدوا الأشعار والأقوال الشاذّة التي سمعوها من الفصحاء العرب والتي وصفها البصريون بالشذوذ.

والمدرسة البغدادية توسع فيها بعض أعلام المدرسة البغداديّة في الأخذ والاستشهاد بأشعار الطبقة الرابعة ، فقد استشهد الزمخشري بشعر أبي تمام ت 231 هـ وقال : هو وإن كان محدثاً لا يستشهد بشعره في اللغة ، فهو من علماء العربية ، فأجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه [19] ، واستشهد الرضي الأسترآبادي شارح أبيات كافية ابن الحاجب بشعر أبي تمام أيضاً في عدّة مواضع من شرحه.

) نقلا عن كتاب الأنباري الانصاف)هذا هو الخلاف الدائر في المدارس الثلاثة البغدادية والكوفية والبصرية.

نأتي الآن إلى علماء المدرسة البصرية تعتبر هي الأكثر انجابا للعلماء في اللغة والأدب ... وأيضا الشعراء ... ولكن غالبيتهم من أصحاب الأهواء ولم يسلم منهم إلا أربعة : أبو عمرو بن العلاء والأصمعي ويونس بن حبيب والخليل بن أحمد الفراهيدي.

الهوامش المعتمدة:

ـ طبقات النحويين واللغويين : للزبيدي ، دار المعارف ، مصر.

ـ المدارس النحوية : شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر.

ـ إبراهيم عبود السامري : المفيد في المدارس النحوية ، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة ، عمان الأردن.

ملاحظة: يستعان بمطبوعة المرحلة 1 للتّحليل

النّصّ رقم 3 للمناقشة و التّحليل: نشأة النحو الكوفي

« تركت الكوفة للبصرة وضع نقط الإعراب في الذكر الحكيم و وضع نقط الإعجام، والأنظار النحوية والصرفية الأولى التي تبلورت عند ابن أبي إسحاق والتي أقام عليها قانوني القياس والتعليل، إذ كانت في شغل عن كل ذلك بالفقه ووضع أصوله ومقاييسه وفتاواه وبالقراءات وروايتها رواية دقيقة، مما جعلها تحظى بمذهب فقهي هو مذهب أبي حنيفة وبثلاثة من القراء السبعة الذين شاعت قراءاهم في العالم العربي، وهم: عاصم وحمزة والكسائي. وعُنيت بجانب ذلك عناية واسعة برواية الأشعار القديمة وصنعة دواوين الشعر، وإن كانت لم تعن بالتحري والتثبت فيما جمعت من أشعار، حتى ليقول أبو الطيب اللغوي: "الشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله، وذلك بيّن في دواوينهم"1.

وعادة تذكر كتب التراجم أولية للنحو الكوفي مجسدة في أبي جعفر الرؤاسي ومعاذ الهراء. أما الرؤاسي فيقول مترجموه: إنه أخذ النحو عن عيسى بن عمر وأبي عمرو بن العلاء، وعاد إلى الكوفة فتتلمذ عليه الكسائي، وألف لتلاميذه كتابا في النحو سماه " الفيصل ". وكان يزعم أن كل ما في كتاب سيبويه من قوله: "وقال الكوفي" إنما يعنيه، غير أنّ الكتاب يخلو خلوا تاما من هذه ».

النّص رقم 4 للمناقشة و التّحليل:

" وأضافوا إلى هذا الينبوع الأساسي ينبوعا بدويا زحف إلى بلدتهم من بوادي نجد، وهو نفر من الأعراب الكاتبين قدم إلى البصرة واحترف تعليم شبابها الفصحى السليمة وأشعارها وأخبار أهلها. وفي الفهرست لابن النديم ثبت طويل بأسماء هؤلاء المعلمين الفهرست ص71 وما بعدها. من الإعراب الذين وثَّقهم علماء البصرة وأخذوا عنهم كثيرا من المادة اللغوية والنحوية سجلوها في مصنفاتهم. وكان القرآن الكريم وقراءاته مددا لا ينضب لقواعدهم، وتوقف نفر منهم إزاء أحرف قليلة في القراءات لا تكاد تتجاوز أصابع اليد الواحدة، وجدوها لا تطرد مع قواعدهم، بينما تطرد معها قراءات أخرى آثروها، وتوسع في وصف ذلك بعض المعاصرين، فقالوا: إنهم كانوا يردون بعض القراءات ويضعفونها، كأن ذلك كان ظاهرة عامة عند نحاة البصرة مع أنه لا يوجد في كتاب سيبويه نصوص صريحة مختلفة تشهد لهذه

التهمة الكبيرة. وسنرى الأخفش الأوسط يسبق الكوفيين المتأخرين إلى التمسك بشواذ القراءات والاستدلال عليها من كلام العرب وأشعارهم. وفي الحق، إن بصريي القرن الثالث هم الذين طعنوا في بعض القراءات، وهي أمثلة قليلة لا يصح أن تتخذ منها ظاهرة ولا خاصة عامة، وقد كانوا يصفونها بالشذوذ ويؤولونها ما وجدوا إلى التأويل سبيلا. وكانوا لا يحتجون بالحديث النبوي ولا يتخذونه إماما لشواهدهم وأمثلتهم؛ لأنه روي بالمعنى إذ لم يكتب ولم يدون إلا في المائة الثانية للهجرة، ودخلت في روايته كثرة من الأعاجم، فكان طبيعيا أن لا يحتجوا بلفظه وما يجري فيه من إعراب، وتبعهم نحاة الكوفة، وفي ذلك يقول أبو حيان: إن الواضعين الأولين لعلم النحو المستقرئين للأحكام من لسان العرب كأبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمرو والخليل بن أحمد وسيبويه من أئمة البصريين والكسائي والفراء وعلي بن المبارك الأحمر وهشام الضرير من أئمة الكوفيين لم يحتجوا بالحديث، وتبعهم على هذا المسلك المتأخرون من الفريقين الاقتراح للسيوطي "طبعة حيدر آباد" ص71، والهمع 1/ 105.

. وأما من حيث القياس والتعليل فقد توسعوا فيهما، إذ طلبوا لكل قاعدة علة، ولم يكتفوا بالعلة التي هي مدار الحكم فقد التمسوا عِلَلا وراءها. وقانون القياس عام، وظلاله مهيمنة على كل القواعد إلى أقصى حد، بحيث يصبح ما يخرج عليها شاذا، وبحيث تفتح الأبواب على مصاريعها ليقاس على القاعدة ما لم يسمع عن العرب ويحمل عليها حملا، فهي المعيار المحكم السديد.

وعلى هذه الشاكلة شادت البصرة صرح النحو ورفعت أركانه، بينما كانت الكوفة مشغولة عن ذلك كله، على الأقل حتى منتصف القرن الثاني للهجرة، بقراءات الذكر الحكيم ورواية الشعر والأخبار، وقلما نظرت في قواعد النحو إلا ما سقط إلى بعض أساتذتها من نحاة البصرة إذ كانوا يتتلمذون لهم ويختلفون إلى مجالس محاضراتهم وإملاءاتهم. وكان القدماء يعرفون ذلك معرفة دقيقة، فنصوا عليه بعبارات مختلفة، من ذلك قول ابن سلام: "وكان لأهل البصرة في العربية قدمة، وبالنحو ولغات العرب والغريب عناية" ابن سلام ص12، ويصرح ابن النديم في هذا المجال تصريحا أكثر وضوحا إذ يقول في حديثه عن نحاة الكوفة والبصرة: "إنما قدمنا البصريين أولا؛ لأن علم العربية عنهم أخذ" الفهرست ص102.

. وحاول بعض المستشرقين أن يصلوا بين نشوء النحو في البصرة والنحو السرياني واليوناني الهندي، غير أنه لا يمكن إثبات شيء من ذلك إثباتا علميا وخاصة أن النحو العربي يدور على نظرية العامل وهي لا توجد في أي نحو أجنبي، وكل ما يمكن أن يقال: إنه ربما عرف نحاة البصرة الأولون أن لبعض اللغات الأجنبية نحوا، فحاولوا أن يضعوا نحوا للعربية راجعين في ذلك إلى ملكاتهم العقلية التي كانت قد

رقيت رقيا بعيدا بتأثير ما وقفوا عليه من الثقافات الأجنبية، وخاصة الفلسفة اليونانية وما يتصل بها من المنطق، مما دعم عقولهم دعما قويا، وجعلها مستعدة لأن تستنبط قواعد النحو وعلله وأقيسته.

ويظهر أنه كُفل للبصرة من الصلة بهذه الثقافات في القرن الثاني للهجرة ما لم يكفل للكوفة، فقد كانت مرفأ تجاريا للعراق على خليج العرب. فنزلتها

عناصر أجنبية كثيرة أعدت في سرعة لوصلها بثقافاتها المختلفة، وأيضا فإنها كانت أقرب من الكوفة إلى **مدرسة جُنْدَيْسابور** الفارسية التي كانت تدرس فيها الثقافات اليونانية والفارسية والهندية، مما جعل جداول من تلك الثقافات تصبّ فيها؛ و لذلك كان طبيعيا أن نجد بها أقدم المترجمين، و نقصد ماسرجويه الذي عهد إليه عمر بن عبد العزيز بترجمة كتيب في الطبّ، و لا نلبث أن نلتقي بابن المقفع الذي نشأ بها و توفي سنة 143 للهجرة و كان يتقن الفارسية، ويحذق العربية فترجم إليها أروع ما في الفارسية من كنوز تاريخية وأدبية، كما ترجم كليلة ودمنة الهندية منها، وكذلك منطق أرسطاليس.

وبذلك نفهم السر في أن عقل البصرة كان أدق وأعمق من عقل الكوفة وكان أكثر استعدادا لوضع العلوم، إذ سبقتها إلى الاتصال بالثقافات الأجنبية وبالفكر اليوناني وما وضعه أرسطاليس من المنطق وحدوده وأقيسته. ويمكن أن نلاحظ آثار ذلك في نشاط المباحث الدينية في البلدتين، فقد عُنيت الكوفة بالفقه بينما عُنيت البصرة بعلم الكلام، وحقا أشاع أبو حنيفة في الفقه القياس والرأي أو الاجتهاد، ولكن من يرجع إلى كتب الفقه الحنفي حتى في العصور المتأخرة يلاحظ أنه ينقصها دائما شيء من التعميم والتعريف ووضع القواعد الكلية، فباب البيع مثلا يفتح، ولا يصاغ له تعريف محدد، ولا تذكر له أركان وشروط، وإنما مسائل متناثرة يتوالى بعضها في إثر بعض. وهكذا دائما في الفقه الحنفي يغلب أن يفتح الباب على فروع دون أصول عقلية تضم شعبها الكثيرة. بينما علم الكلام يناقش مسائل كلية، وهي مسائل ميتافيزيقية، والمسألة تثار في ضوء تفكير فلسفي معقد، مما يدل على صلة المتكلمين العميقة بالفلسفة اليونانية، حتى لنرى الجاحظ يقول: "لا يكون المتكلم جامعا لأقطار الكلام، متمكنا في الصناعة، يصلح للرياسة حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة" 1الحيوان "طبعة الحلبي" 2/ 134 فعقل كل من البلدتين كان مختلفا: عقل مصبوغ بالصبغة الفلسفية المنطقية، وعقل لا يرتفع إلى هذه المنزلة إلا في حدود ضيقة؛ لذلك كان طبيعيا أن لا يصاغ الفقه الحنفي الكوفي صياغة علمية دقيقة، بينما يصاغ النحو في أدق صورة علمية ممكنة على نحو ما سنرى في كتاب سيبويه، وهي صياغة لم تستطع العصور التالية أن تضيف إليها إلا بعض تعريفات وبعض تسميات، أما الأصول وأما

القواعد والضوابط والأسس فإنها ظلت قائمة كالأطواد الراسخة.

النّصّ رقم 5 للمناقشة و التّحليل: خصائص الدرس النحوي في مدرسة الكوفة

انصرف الكوفيون في البداية عن الدرس النحوي إلى رواية الأشعار والأخبار والملح والنوادر، ثم تكاتف البصريون والكوفيون بعد قرن من اشتغال البصريين وحدهم بالنحو على استكمال قواعده مع التنافس في ذلك تنافساً شديداً قرابة قرن آخر خرج بعدها علم النحو تام الأصول كامل العناصر الرئيسة وانتهى الاجتهاد فيه (تقريباً).

وقد اتجهت الكوفة وجهة خاصة في أساليب البحث النحوي وطرق الاستنباط ومبلغ الاعتداد بالشواهد وغير ذلك، ونشأ عن هذا أن أصبح للكوفة مذهب له طابع خاص.

وكان الكوفيون أسلس وأكثر تساهلاً فاحترموا كل ما صحَّ سماعه من العرب ولو خالف قواعدهم وأجازوا القياس عليه بل عدّوه أساساً لوضع قاعدة جديدة، وقد اعتمدوا أيضاً على الشعر المصنوع وعلى الشعر المنسوب لغير قائله دون أن يهتموا بالتمحيص واكتفوا بالشاهد الواحد وبنوا عليه حكمهم واستنبطوا منه قاعدتهم، بل لقد ترخصوا أحياناً فأخذوا بالقياس النظري على مقتضى الرأي حين أعوزتهم الشواهد المسموعة فوصلوا بذلك إلى بعض قواعدهم دون اعتماد على شاهد مروي أو أثر مسموع، وقد أدى هذا بهم إلى أن يقل عندهم التأويل والحكم بالشذوذ والضرورات، ومما اعتد به الكوفيون أيضاً شعر الأعراب الذين فسدت سليقتهم بسبب الاختلاط بالحضر، وقد حمل هذا البصريين على أن يكثروا من إنكار شواهد الكوفيين والإعراض عنها، كذلك كان الكوفيون أكثر رواية للشعر وكان المصنوع لديهم منه أكثر من الشعر المصنوع عند البصريين، وهذا هو السبب الذي جعل النحو الكوفي يأخذ شواهده من نظيره البصري وليس العكس.

وقد أدى أخذ الكوفيين بكل شاهد مهما كانت درجته إلى أن يصبحوا أشبه بالمجددين الذين يتلمسون التوسع ويجرون وراء الابتكار، وتميز نحوهم بالترخص وبالاهتمام بتتبع المرويات اللغوية والتسامح في أخذها عن كل واحد ولو كان أعرابية رعناء على حدّ قول المبرد، وبأنهم كانوا إذا سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف لأصولهم جعلوه أصلاً وبوّبوا عليه، وبأنهم أخذوا عن أعراب قرى بغداد والكوفة وهم عند البصريين من غير أهل الفصاحة وممن لا يجوز الأخذ منهم، وبأنهم لم يخرجوا في القراءات عن هذا الإطار، لذلك التزموا بالقراءات المختلفة واعتدوا بها مهما كانت درجتها لإيمانهم بأن كل قراءة سنة متبعة يلزم الاعتداد بها والمصير إليها، وبأنهم التزموا بالمنهج اللغوي، وحرصوا على

الانتفاع من جميع المصادر اللغوية مهما كانت منزلتها وآثروا الاعتماد على النقل وقدموه على العقل بسبب تأثرهم بمنهج القراء، إذ كانت الكوفة آنذاك مهبط المشتغلين بالقراءة مما جعلهم أكثر حرصاً على تفسير الظواهر الإعرابية تفسيراً أدنى إلى طبيعة اللغة نفسها وأكثر عزوفاً عن التأويلات وخاصة البعيد منها الذي يخالف الظاهر كما يدل عليه مثلاً قول الكسائي شيخ الكوفيين حين سئل عن شذوذ (أيّ) الموصولة في استعمالاتها عن سائر أخواتها الموصولات (أيٌّ كذا خُلقتْ) وأشد حرصاً من البصريين على الابتعاد عن التقدير والحذف ونحوهما عن اتباع التوجيهات الغريبة المصطنعة وبأنهم على الرغم من منهجهم اللغوي استعملوا القياس وهو عملية عقلية تركيبية بل توسعوا فيه فأخذوا بالقياس النظري في بعض الأحيان الذي لا يعتمد على شاهد البتة مترخصين فيه على مقتضى الرأي وحده، وبهذا أصبحوا أكثر قياساً من البصريين في الكم وأقل منهم إتقاناً له في الكيف، وبأنهم أضافوا مصطلحات نحوية بعيدة عن التعمّل الفلسفي، وأقرّوا بوجود العوامل التي أقرّ بها البصريون وبدورها في الإعراب ولكنهم لم يمنحوها كالبصريين خصائص العلة العقلية ولم يفلسفوها مثلهم.

ومن أهم النحاة الكوفيين: أبو جعفر الرّؤاسي المتوفى بالكوفة ولم يذكر أحد سنة وفاته، ومعاذ الهراء المتوفى بالكوفة سنة 187هـ، وأبو الحسن الكسائي المتوفى في (رنبويه) بفارس سنة 189هـ، وأبو الحسن الأحمر المتوفى بطريق الحج سنة 194هـ، والفراء المتوفى ببغداد سنة 207هـ، وهشام بن معاوية الضرير المتوفى 209هـ، وأبو الحسن اللحياني المتوفى سنة 220هـ، وابن سعدان المتوفى سنة 231هـ، ويعقوب بن إسحاق السكيت المتوفى ببغداد سنة 243هـ، وأبو عبدالله الطوال المتوفى ببغداد سنة 243هـ، وأبو جعفر بن قادم المتوفى ببغداد سنة 251هـ، وأبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب المتوفى ببغداد سنة 291هـ.

النّصّ رقم 6 للمناقشة و التّحليل:

استهل أبو العباس محمّد ابن مضاء القرطبي كتابه بحملة موجهة الى النحاة محاولا ان يسدي إليهم النصيحة بقوله: « أمّا بعد فإنّه حملني على هذا المكتوب قول الرّسول (ص) " الدين النصيحة " ذلك أنّي رأيت أنّ نحاة المشرق ضلّوا وأضلّوا الناس في وعثاء النحو و ما شابهه».

واخذ أبن مضاء القرطبي يدعو إلى حذف ما يمكن أن يستغنى عنه و ينبّه الى ما اعتبره إجماعا منهم على الخطأ، ولو أخذنا بالعمل بما جاء في كتاب ابن مضاء القرطبي فإن مجمل المقرر للفصول الدراسية سيحذف .. بالرغم أننا سنبقى نعاني من المتعصبين للغة الضاد وأنّ ما قاله ابن مضاء عنهم قبل ألف عام لا يروق لهم وسيردّون بأنْ: يكلفون المقررات ما

ضاقت به الأجيال كما قد ضاق به من قبل ابن مضاء القرطبي.

النّصّ رقم 7 للمناقشة و التّحليل: مصطلح مدرسة

« كتب تاريخ النحو والنحاة لا تستعمل مصطلح " مدرسة " كـ: كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام ت231هـ، وكتاب المعارف لابن قتيبة ت 276 هـ، ومراتب النحويين لأبي الطيب اللّغوي ت 351 هـ، تحدث فيها هؤلاء عمن لهم قدم في النحو و لغات العرب و الغريب ورواية الشعر.

ثمّ إنّ يحيى بن يعمر، وعبد الله بن أبي اسحق، و أبا عمرو بن العلاء، و الخليل، و سيبويه، و أبا زيد الأنصاري، و المفضل الضّبي، و الكسائي، و الفراء، لم ينسب أيٌّ من هؤلاء إلى مدرسة نحوية او مذهب نحوي، و إنّما كانوا ينسبون إلى البصرة أو الكوفة، فيقال: أهل البصرة أو أهل الكوفة.

و قسّم **أبو بكر الزبيدي** ت 379 هـ في كتابه طبقات النحويين و اللغويين النّحاةَ و اللغويين إلى خمسة أقسام ضمّ كلّ قسم نحويين و لغويين، ثمّ قسّمهم حسب التّرتيب الزّمني فكان البصريون و الكوفيون و المصريون و القرويون و الاندلسيون، و لم يفرد للبغداديين قسمًا خاصًّا بهم، و لم ينسبهم إلى مدرسة أو مذهب معين، مع أنّه استعمل كلمة مذهب عندما ذكر أبا موسى الحامض فقال عنه: كان بارعًا في اللغة والنحو على مذهب الكوفيين. و قال عن ابن كيسان: كان بصريا كوفيا يحفظ القولين و يعرف المذهبين. من هذا يتبين أنّ الزبيدي هو أوّل من استعمل عبارات: مذهب الكوفيين، و المذهبين .

وابو عبد الله **المرزباني** ت 384 هـ في كتابه " نور القبس " لم يذكر مدرسة أو مذهب، و إنّما استعمل علماء البصرة، و نحو الكوفيين، و أهل بغداد، فهو أوّل من قسّم النّحاة إلى أهل البصرة و أهل الكوفة و أهل بغداد.

و **ابن النديم** ت 385 هـ في كتابه " الفهرست " ذكر أسماء جماعة من النّحويين و اللّغويين ممّن خلطوا المذهبين، فقد قال عن ابن قتيبة: إنّه خلط المذهبين.

و **أبو البركات الأنباري** ت577 هـ في كتابه " نزهة الألباء " ذكر كلمة مذهب مع الكوفيين، و خلط بين المذهبين مع البغداديين.

و **القفطي** ت 646 هـ في " إنباه الرّواة " كان يقول: البصري النحوي والبصري اللغوي، و من أهل البصرة، و من نحاة الكوفة، و البغدادي النحوي.

إذًا فالقدماء لم يستعملوا كلمة مدرسة، و أوّل من استعمل كلمة مذهب أو مذهبين هما: **أبو بكر الزّبيدي**

و **ابن النديم**، و غيرهما كانوا يستعملون: بصري، أهل البصرة، و كوفي، و أهل الكوفة، و أهل بغداد.
و ما ذكره **عبد الحليم النجّار** من أنّ القدماء ذكروا المدارس النحوية البصرية والكوفية والبغدادية لم يثبت إطلاقًا».

النّصّ رقم 8 للمناقشة و التّحليل:

العامل السياسي: كانت البصرة عثمانية أموية. وكانت الكوفة علوية عباسية.

الموقع الجغرافي **قرب سوق المربد من البصرة**

« كان للعامل الثقافي أثر واضح في سبق البصرة للاشتغال بالنّحو إذ كانت تنعقد فيها مجالس للعلم و المناظرة و يفِـد إليها الشّعراء و رواتهم، فهي تشبه سوق عكاظ في الجاهلية ينزل العلماء و الأدباء و الأشراف للمذاكرة و الرّواية و الوقوف على ملح الأخبار. و كان اللّغويون يأخذون عن أهله و يدوّنون ما يسمعون فيأخذ عنهم النّحويون ما يصحّح قواعدهم.
و في الحقيقة نحاة البصرة تأثروا بالبيئة البصرية و نهج المعتزلة، و تأثروا بهم في الاعتداد بالعقل و طرح كلّ ما يتعارض معه، فأهملوا الشّواذّ في اللّغة، لهذا سمي نحاة البصرة أهل المنطق، [7] و من الأمور التي تراعيها مدرسة البصرة في بحثها الآتي :

اعتمد البصريون في مادّة منهجهم العلمي على الأفصح من الألفاظ و الأسهل منها على اللّسان، و لذلك اختاروا من بين القبائل التّي اعتمدوا عليها القبائلَ المقطوعَ بعراقتِها في العربية، و المصونة فطرتهم من رطانة الحضارة الأجنبية، فاختاروا من العرب قيسًا و تميمًا و أسدًا، فأخذوا أكثر قواعدِهم من هؤلاء في اللّغة، و الإعراب، و التّصريف. ثمّ أخذوا من هذيل، و بعض كنانة، و بعض الطّائيين، و لم يأخذوا عن حضريّ و لا من سكان البراري ممّن كان يجاور الأمم الأخرى. و من هنا رفضوا الأخذ من لخم و جذام لمجاورتهم أهل مصر، و لم يأخذوا من قضاعة و لا من غسّان و لا من إيّاد لمجاورتهم أهل الشام، و لا من النمر لمجاورتهم اليونان، و لا من بكر لمجاورتهم النّبط و الفرس.

كان البصريون يتحرّون عن الرّواة فلا يأخذون إلاّ برواية الثقات الذين سمعوا اللغة من الفصحاء عن طريق الحفظة و الأثبات الذين بذلوا الجهد في نقل المرويات عن قائليها منسوبة إليهم فقد أبوا أن يستدلّوا بشاهد لم يعرف قائله.

اشترط البصريون فيما ينقل عن العرب الكثرة الكاثرة فيقعّدون على الأكثر و إلا فعلى الكثير، و إلا

فعلى القليل، و إلا فعلى الأقل، و إلا فعلى النادر، و إلا قاسوا الأشباه على الأشباه، و النظائر على النظائر إذا لم يتناقص مع الوارد و لذا اعتبر سيبويه قياس فعولة بفعيلة في النسب إليها بحذف حرف المدّ و قلب الضمة فتحة و إن لم يرد منها إلا شنيء في النسب إلى شنوءه، لأنه لم يرد ما يخالفها فإذا ما خالف الوارد ما سبق من قياس أوّلوه أو اعتبروه شاذا يحفظ و لا يقاس عليه و قد ينكرونه أو يقولون إنه ضرورة [7] .

تعدّ هذه المدرسة واضعة النحو ابتداءً، و إنّ أوّل نحويّ بصريّ حقيقيّ هو عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت 117هـ) و هو من القرّاء. قال ابن سلام (ت 234 هـ) : " كان أول من بعج النحو و مدّ القياس و شرح العلل و كان ابن أبي إسحاق كثير التعرض للفرزدق لمّا كان يورده في أشعاره من بعض الشواذ النحوية ، حتى كانت مراجعته المستمرة للفرزدق تغضبه فهجاه بقصيدة يقول في تضاعيفها هذا البيت : * فلو كان عبد الله مولى *

و لمّا سمعه ابن أبي إسحاق قال له : أخطأت إنما هو مولى موال. و كان شديد التمسك بالقياس النحوي حتى إنه ليخالف جمهور القراء في بعض قراءتهم تمسكا بالقياس النّحوي

و جميع نحاة البصرة الذّين خلفوه ينتمون إلى القرّاء، من هؤلاء: تلميذه عيسى بن عمر الثّقفي و أبو عمرو بن العلاء، و تلميذا عيسى الخليل بن أحمد و يونس بن حبيب.

وتميز نحاة البصرة بجعل القواعد مطردة عامة ممّا جعلهم يطرحون الشّاذ، ولا يعربون عليه إلا القليل النادر.

ويضاف أيضا اشتراطهم في الاستواء صحة المادة التي يشتقون منها قواعدهم، فكانوا يجمعون من البوادي من أعماق نجد وبوادي الحجاز و تهامة ومن القبائل المحتفظة بملكة اللغة وسليقتها الصحيحة مما لم تفسد الحضارة لسانها وكانوا لا يحتجون بالحديث النبوي لاحتمال روايته بالمعنى من الأعاجم، وتابعهم في هدا نحاة الكوفة.

وتوسّعوا من حيث القياس و التعليل إد طلبوا لكل قاعدة علة ، بحيث يصبح ما يخرج عليها شاذا ولقياس على القاعدة ما لم يسمع عن العرب فتصير القاعدة المعيار المحكم لسديد.

وعلى هذه الأسس شادت البصرة صرح النحو و رفعت أركانه».

النّصّ رقم 9 للمناقشة و التّحليل:

مدرسة البصرة

البصرة أول مدينة عنيت بالنحو واللغة وتدوينها واختراع القواعد لها. وقد سبقت البصرة بنحو مائة عام الكوفة التي جاءت بعدها لتؤسس مذهباً خاصاً يضاهي مذهب البصرة وينازعه ويتعصب لكل علمائه.

تبدأ مدرسة البصرة بأبي الأسود الدؤلي الذي توفي بها سنة ٦٧ هـ.

وكان من تلاميذه عنبسة الفيل. ونصر بن عاصم الليثي (توفي سنة ٨٩ هـ) ويحيى بن يعمر (توفي سنة ١٢٩ هـ) الذي نسب إليه ابتداء النحو في بعض الروايات.

ثم جاء من بعدهم طبقة أخرى من أبي عمرو بن العلاء (عاش من سنة ٧٠ ـ ١٥٤ هـ) وابن أبي إسحاق الحضرمي (توفي سنة ١١٧ هـ).

ثم جاءت طبقة ثالثة هي طبقة أبي زيد سعيد بن أوس (توفي سنة ٢١٥ هـ) ويونس بن حبيب (عاش من سنة ٩٠ ـ ١٨٢ هـ) وأبي جعفر الرؤاسي (مؤسس مدرسة الكوفة). والأخفش عبد الحميد بن عبد المجيد (توفي سنة ١٧٧ هـ) وعيسى بن عمر الثقفي (توفي سنة ١٤٩ هـ).

ثم جاءت طبقة رابعة هي طبقة الخليل بن أحمد (عاش من ١٠٠ ـ ١٧٥ هـ) وسيبويه عمرو بن عثمان (توفي سنة ١٨٠ هـ) والكسائي علي بن حمزة (في سنة ١٨٠ أو ١٨٣ أو ١٨٩ هـ على أقوال وهو أوضح شخصية في مدرسة الكوفة.

هؤلاء هم أوضح الرجال من مؤسسي مدرسة البصرة. ويلاحظ أننا جعلناهم طبقات في التلقي والأخذ. وإن كان هذا لا يمنع أن أفراد الطبقة الواحدة قد تلقى بعضهم عن بعض كما تلقى سيبويه عن الخليل مثلاً. ويلاحظ أيضاً أن مؤسسي مدرسة الكوفة قد تلقوا عن البصريين.

ومن هذا يتضح أن مدرسة البصرة ظلت قائمة وحدها في النحو إلى أن جاء أبو جعفر الرؤاسي فأسس مدرسة الكوفة ثم دعمها تلميذاه الكسائي والفراء. فظهر كيانها بهما.

وكان عمل علماء البصرة في أول أمرها هو إثارة مسائل متفرقة والنقاش حول آية أو حديث أو بيت من الشعر ثم استخراج قاعدة. ولم يبدأ التدوين إلا بعد فترة. وأسبق من نسب إليه التأليف هو ابن أبي إسحاق الحضرمي فقد نسب إليه أنه كتب كتاباً في الهمز.

ثم جاءت الخطوة التالية وهي جمع مسائل النحو المعروفة في كتاب وقد ذكروا أن عيسى بن عمر الثقفي المتوفى سنة ١٤٩ هـ فعل ذلك فألف كتابين سمى أحدهما الجامع والآخر الإكمال. ورووا أن الخليل بن أحمد قال: ـ

ذهب النحو جميعاً كله غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع فهما للناس شمس وقمر

ويبدو أنها كانت محاولة أولية للجمع.

وقد كان صاحب الفضل في الجمع الخليل بن أحمد صاحب العقل الجبار المبتكر الذي قل أن يوجد له نظير في علماء ذلك العصر والذي عكف على العلم يخترع فيه ويستنبط أصوله من فروعه على طريقة لم يسبق إليها واكتفى من دنياه بالقليل من العيش فهو الذي بسط النحو ومد أطنابه وسبب علله وفتق معانيه ثم لم يرض أن يؤلف فيه حرفاً. واكتفى في ذلك بما أوحى إلى سيبويه من علمه ولقنه من دقائق نظره ونتائج فكره. فحمل سيبويه ذلك عنه وتقلده وألف فيه الكتاب الضخم الكامل الذي راع من قبله ومن بعده.

والحق أن سيبويه لم يقتصر في كتابه على أقوال الخليل بل ذكر كثيراً من أقوال العلماء غيره. فهو ينقل كثيراً عن يونس حتى ينقل عنه أبواباً برمتها فقد نقل فصلين من التصغير عنه بأمانة وقال: (وجميع ما ذكرت لك في هذا الباب وما أذكر لك في الباب الذي يليه قول يونس) ويحكي أقوال أبي عمرو بن العلاء ويوازن بينها وبين قول الخليل ويونس.

ويروي عن الأخفش. ويقول: حدثني من أثق بعربيته ويريد (أبا زيد) وأحياناً يروي عن العرب مباشرة.

ويعتبر كتاب سيبويه أعظم إنتاج مدرسة البصرة. ثم تابعت مدرسة البصرة عملها لعدة طبقات إلى أن تغيرت الأمور السياسية وأصبحت بغداد مركز النشاط العلمي والسياسي فانتقل إليها العلماء.

مدرسة الكوفة

نشأت بالكوفة مدرسة أسسها أبو جعفر الرؤاسي وكان لها مبدأ خاص هو احترام النص والتزامه على عكس البصرة التي كانت تحترم القياس وتجريه وتبسطه. ووضع كتاباً في النحو لم يصل إلينا وعاونه في تدعيم المدرسة تلميذاه علي بن حمزة الكسائي ويحيى بن زياد الفراء. حتى أصبح للمدرسة كيان مستقل مناهض لمدرسة البصرة. ومن أصحاب هذه المدرسة علي بن المبارك ومحمد بن سعدان وهشام وتغلب وابن السكيت وقد كانت هذه المدرسة تعتمد النص ولو خالف الكثرة والغالب من النصوص وكانت تحترم نطق الأعراب في عهدهم ولو شذ. وكثر لديهم الشعر المصنوع.

وكان للكوفيين الحظوة عند الخلفاء والأمراء أكثر مما كان للبصريين فالكسائي رئيس مدرسة الكوفة، كان ذا حظوة عظمى عند الرشيد، وكان معلم الأمين والمأمون. وكان الفراء معلم أولاد المأمون، وكان ابن السكيت معلم أولاد المتوكل. وكان ثعلب مع المبرد «البصري»، معلمي عبد الله بن المعتز.

الفروق الأساسية بين مدرستي البصرة والكوفة

كان أهم الفروق الأساسية بين المدرستين أن مدرسة البصرة رأت أن أهم غرض وضع قواعد عامة للغة تلتزمها وتريد أن تسير عليها في دقة وحزم. وإذا كانت اللغات دائماً لا تلتزم القواعد العامة بل فيها مسائل لا يمكن أن تجري على القاعدة وخاصة اللغة العربية التي هي لغة قبائل متعددة تختلف فيما بينهما اختلافاً كبيراً. فقدْ أراد البصريون تمشياً مع غرضهم أن يهدروا الشواذ. فإذا ثبتت صحتها قالوا إنها ـ تحفظ ولا يقاس عليها ـ.

فالبصريون إذا رأوا «استجاد». «واستزاد». «واستخار». «واستعار» ورأوا الأكثر

يجري على هذا النسق. ثم رأوا «استصوب» «واستحوذ» عدوا ذلك شذوذاً يحفظ ولا يقاس عليه.

وإذا رأوا (إن) تنصب الاسم وترفع الخبر غالباً. ثم رأوها في بعض المواضع لا تسير هذا السير مع الوثوق بصحة ما ورد نحو (إن هذان لساحران) ألزموا الناس باتباع الأغلب. مع محاولة تأويل ما ورد تأويلاً يتفق وقواعدهم ولو بنوع تكلف.

فالبصريون يفضلون القياس ويؤمنون بسلطانه ويجرون عليه ويهدرون ما عداه. وإذا رأوا لغتين: لغة تسير مع القياس ولغة لا تسير عليه فضلوا التي تسير عليه وضعفوا من قيمة غيرها أما الكوفيون فلم يروا هذا المسلك. ورأوا أن يحترموا كل ما جاء عن العرب ويجيزوا للناس أن يستعملوا استعمالهم ولو كان الاستعمال لا ينطبق على القواعد العامة بل يجعلون هذا الشذوذ أساساً لوضع قاعدة عامة.

قال الأندلسي: (الكوفيون لو سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلاً وبوبوا عليه).

فهم أكثر تجويزاً للوجوه المختلفة في المسائل المختلفة. فإذا سمعوا ـ مثلاً ـ (يا ليت عدة حول كله رجب) وضعوا لذلك قاعدة مع أنه شاذ لأنه وصف الحول وهو نكرة بكله وهو معرفة. وأجازوا أن تقول: صمت شهراً كله وتهجدت ليلة كلها.

أما البصريون فيردون عليهم أولاً، إن هذا البيت لم يعرف قائله وثانياً: لو صح لكان شاذاً لا يقاس عليه.

وهكذا نستطيع أن نلمح مقدار الخلاف بين المدرستين.

كما أن الكوفيين كانوا أكثر رواية للشعر والشعر المصنوع كان لديهم أكثر من المصنوع عند البصريين وواضح أن البصريين كانوا أكثر حرية وأقوى عقلاً وكانوا يريدون أن يضعوا نظاماً ثابتاً للغة ثم يقضوا على كل أسباب الفوضى من رواية ضعيفة أو موضوعة.

أما الكوفيون فقد كانوا أقل حرية وأكثر احتراماً للغة ولنصوصها وأقوى تقديراً لطبيعة اللغات من أنها ما تخضع لقانون منتظم وإنما قانونها السماع خاصة وأن اللغة

العربية لغة قبائل متعددة متباعدة ولا يعقل أن ـ نخطىء العربي الذي يتكلم بالسجية والذي نريد أن ندرس لغته ـ.

ونشأ عن اختلافهم هذا اختلاف كثير في الفروع النحوية مثل كلمة (الاسم) مشتقة من السمو عند البصريين. ومن الوسم عند الكوفيين ومثل أن المصدر أصل الاشتقاق عند البصريين والفعل أصل الاشتقاق عند الكوفيين. وهكذا وقد انتصر لكل مدرسة جماعة من المتأخرين.

وكان البصريون أكثر اعتداداً بأنفسهم وأكثر شعوراً بالثقة وأشد ارتياباً فيما يرويه الكوفيون لذلك كان الكوفي يأخذ عن البصري ولكن البصري يتحرج أن يأخذ عن الكوفي.